



# عالم برؤى إنسانية أكثر



بسام الكلباني

يذكر جيرارد بليك في محاضراته التي ألقاها في جامع السلطان قابوس الأكبر، والتي عنونها بـ«عالم بلا حدود»- أننا عندما نتأمل خريطة العالم السياسية في المدرسة والمكتبة، فإن أول ما يشد انتباهنا هو تلك الخطوط الرفيعة التي تفصل بين الدول؛ أي كيف لتلك الخطوط أن ترسي الأمن والسلام والنظام والسيادة الكاملة للدولة، لكن سرعان ما يجول بخاطرنا أيضاً تساؤلات بديهية؛ وهي: كيف تم رسم تلك الحدود؟ ومتى رُسمت؟ وبناءً على أية أسس عالمية أو إنسانية أعطت لتلك الخطوط الرفيعة صفة الديمومة والقانون، ليستमित أفرادها بعد حين في الدفاع عن كل شبر من الدولة؟

أن الاحتلال الفعلي سيكون الأساس في ملكية المناطق؛ وبهذا تم التدافع والتنافس على احتلال العالم وإفريقيا على وجه الخصوص، ولا يخفى على العالم أجمع أن الحدود النيجيرية التابعة للمملكة البريطانية والحدود الكاميرونية التابعة لألمانيا قد تم تقسيمها باجتماع من ممثلي الدول المستعمرة على طاولة واحدة، وتقسيم الخريطة بالقلم الأزرق والمسطرة؛ دونما الأخذ بعين الاعتبار العوامل الجغرافية والإنسانية لتلك الشعوب التي طمست كل معالم أقاليمها بين أيديولوجيات وثقافات أوروبية مختلفة تماماً؛ الأمر الذي أدى إلى أن تصبح الأقلية نادرة جداً في العالم السياسي إذا ما نظرنا بعين مجردة إلى واقع خريطة العالم.

وما يُثير الدهشة: أنه بالنظر إلى الدول ذات الأصول الاستعمارية في رسم حدودها؛ أنها حتى بعد استقلالها لم يكن هنالك اهتمام برسم الحدود أو إعادة صياغتها وإرجاع الأمر إلى ما كان عليه؛ أقله من الجانب العرقي والثقافي؛ وقد أُفسر ذلك بالمبدأ القانوني (وضع اليد) الذي برز في القرن التاسع عشر عندما استعمرت إسبانيا دول أمريكا اللاتينية (باستثناء البرازيل)؛ حيث تبنى القانون الدولي هذا المبدأ ليحمله الآن حقاً من حقوق المستعمر؛ فأى دولة قد استعمرت إقليمياً لخمس عشرة عاماً أصبح الإقليم ملكاً لها، وهذا المبدأ يشكل خطراً حقيقياً في العالم الإنساني، خصوصاً في مواجهة الدول التي تم استعمارها.

وفي رأيي أنه ما دُنا تحتفظ بالحدود الدولية؛ فعلينا أن نفهم تلك الحدود، ونديرها بالشكل الصحيح، ونتعامل معها بشكل إيجابي وصحيح دونما نظرة سلبية تطفئ على تلكم الحدود كالبعد الأمني والانفلات والتخريب والجريمة، وإنما بنظرة قبول يسمو عليها الواقع الفعلي اليوم كالعولمة وثورة الاتصالات والأنشطة التجارية والاقتصادية بين الدول، وهو ما يحدث بشكل جيد جداً في دول الاتحاد الأوروبي؛ فتلك الدول تفضلها حدود فنية على الخريطة، وعلى الواقع تتشكل في حدود لا تتعدى عشرين سنتمتراً سماكة -كالحدود بين مملكة هولندا وبلجيكا- من أجل تحقيق المصالح الوجودية للشعوب، وهي: الإخاء، والازدهار، والنماء، وكل ذلك قد يحدث إذا ما فهمنا الدور الحقيقي لتلك الحدود في إرساء السلام والأمن الدوليين.

فالقانون الدولي قد عرف الحدود السياسية بين الدول؛ حيث نصّ "لإقليم كل دولة حدود تفصيلية عن أقاليم الدول الأخرى المحيطة به وتعيين هذه الحدود مهم إذ عندها تبدأ سيادة الدولة صاحبة الإقليم، وتنتهي سيادة غيرها، ووراءها تنتهي سيادتها وتبدأ سيادة غيرها.

إن أول من قام برسم خريطة للعالم هو العالم العربي المسلم الإدريسي؛ حيث قام بوضع تصوراته لدول العالم بعدما قام بزيارة العديد منها، إلا أن تلك الخريطة اختزلت بمعالم جيولوجية وطبيعية فقط، ولم تكن كذلك النظرة الأوروبية للعالم التي أسست الحدود الإقليمية لدول العالم كضرورة احترام السيادة المطلقة، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى. فالفكرة هذه لم تكن موجودة بالعالم الإسلامي؛ حيث كانت السيادة مبنية على المجتمع البشري (القبلي) وليس على الأرض والمنطقة، كذلك الأمم السابقة كإسبرطة وأثينا وروما؛ فقد كانت الحدود متشكلة في عدة مدن وقرى محورها الأساسي سور وباب عظيم.

وما زال مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ وصمة عار في تقنين المبدأ الحقيقي والفعلي للسيادة إلى نهاية القرن العشرين؛ فقد أقرت القوى الأوروبية

يعني إعادة النظر في الحدود مع كينيا وإثيوبيا. وكذلك مطالبة أفغانستان بتعديل الحدود مع باكستان حتى تحتوي القبائل الموجودة هناك، إلا أن القانون الدولي قد وقع المستعمر على اتفاقيات يضمن قبوله للتنازل عن تلك الحدود؛ وبالتالي حدث ما بعد استقلال تلك الدول النزاعات الحدودية بينها وبين بعضها، فكل دولة في إفريقيا -باستثناء الشمال الإفريقي وليبيريا- قد امتزجت شعوبها وحدودها؛ مما أدى إلى وجود أقليات غير منسجمة مع الدولة نتيجة للزواج أو إدراج إقليم معين لدولة في دولة أخرى من خلال الاستعمار، وقد يكون النزاع الجزائري المغربي على صحراء البربر خير دليل على ممارسات خاطئة من المستعمر.

وتضم قائمة العالم السياسية اليوم مائة واثنين وتسعين دولة مستقلة ذات سيادة من كل الأحكام، ابتداءً بروسيا كأكبر دولة في العالم مساحة إلى الفاتيكان أصغرهما مساحة، فلا يوجد فعلياً فرق في اختلاف أحجام الدول أمام المجتمع الدولي بقدر ما يساهم الأخير في إبراز قوة الدولة في التوسع الجغرافي لا أكثر، إلا أن كل الدول السياسية تحمل الرقم نفسه أمام المنظمات الدولية وما يترتب عليها من حقوق والتزامات؛

لكن الحق أن خريطة العالم السياسية تعيش لحظات زمنية قصيرة في عمرها؛ فليس ثمة تصور ثابت على ديمومتها كما هي عليه، وإذا ما رجعنا للوراء قليلاً لتلاحظنا العالم في أواخر القرن العشرين قد شهد انفجار كينونات صغيرة ذات شعوب وتقاليد مختلفة من الدولة الأم، وتشكلت تلك الكينونات إلى خمس عشرة دولة مستقلة لها حدودها وكيانها الخارجي المستقل عن النظام السوفييتي إبان عهده، وقد بينت إحدى الدراسات وقوع أكثر من ثمانمائة تغيير في خارطة العالم السياسية ما بين عامي ١٩١٦ و١٩٨٠.. ومنذ العام ١٩٤٥، وُلدت حوالي مائة وسبع وعشرون دولة جديدة بحدود مُعترف بها، وبعضوية في الأمم المتحدة، وبناءً على ما يحدث الآن في الساحة السياسية من مشاهد؛ فإن النسبة كبيرة في أن يتزايد العدد الفعلي للدول خصوصاً مع المطالبات العديدة من بعض المستعمرات والأقليات والمقاطعات بالاستقلال؛ كإقليم الباسك بإسبانيا، وإقليم بلوشستان والشيشان وإقليم الكرد بشمال العراق والتاميل والكرين... والكثير من الأقاليم الموجودة في إفريقيا، التي تنشب فيها الآن الصراعات الإثنية والطائفية، وهناك العديد من المؤشرات تشير إلى إمكانية ظهور دول جديدة من بين تلك القوميات المقموعة، والتي أصبح يشار إليها بـ«العالم الرابع»، وهناك بالعالم أكثر من ٦٥٠٠ مجموعة بشرية متجانسة لها تاريخ مشترك وهوية مشتركة والتصاق تاريخي طويل بوطن ثقافي واحد، ولكن طموح الاستقلال والسيادة غاية؛ فمعظم تلك المجموعات ليست بالكبيرة بما فيه الكفاية لتشكيل دولة أو بالأحرى ضعيفة جداً؛ حيث شهد التاريخ طمساً للكثير من تلك المجموعات كحضارات أمريكا اللاتينية المتشكلة في شعوب «الأنديانا»- السكان الأصليين- التي أصبحت تراثاً رغم عمرها الوجودي الذي يتجاوز الألف سنة.

وهناك أسباب منطقية متعلقة بحق تقرير المصير، وجب الالتفات إليها؛ كتلك الأقاليم أنفة الذكر، وقد بدأت هذه الأسباب منذ زمن بعيد بإعلان «درو ولسون» ومبادئه التسعة عشر، ودخل مبدأ حق تقرير المصير الحدود من باب خفي، خاصة عند حصول الدول الإفريقية على استقلالها مجدداً؛ حيث أدعت الصومال أن قبائلها تشتتت في إثيوبيا وكينيا، وقالت إنها تنوي حق تقرير المصير لتجمع شملها، وهذا

